تتابعت الخواطر عدوًا دراكًا في رأس همَّام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتنامى شغفه بها كلَّمَا تمادى في تفتيشها واستقصائها، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه إلا ريثما فرغت «سارة» من تسريح شعرها وتجفيف إهابها؛ لأنه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحةً مفتوحةً بين يديه يحيط بها في نظرةٍ واحدةٍ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمةٍ من هنا وتعليقٍ من هناك جوابًا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات، غير أنها فطنت لما يجول في خُلده، وأدركت أنه ليس معها بجميع قلبه ولسانه، وأشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما، فاستدارت إليه من المرآة متفترة متكسرة، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت: أراني متعبة، أرى أن أذهب أو أريد أن أنام.

وانقضى اليوم بسلامٍ، ونسيا أو تناسيا خطاب «الوعظ» بعد ما كان من عبث التحية الأولى، ونزلت سارة وهي مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء، ومن دأب المرأة إذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبءٌ من الأعباء، وهذا الذي يلوح للرجل في صورة البراءة فينخدع، أو هذا الذي يسمونه أحيانًا بعمق المرأة وقدرتها على إجادة الرياء وإخفاء ما في الطوية، وإنما هي خفتها كالطفل الذي تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل، وقد ودَّ «همَّام» لو يستطيع أن يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة، وما هو بمستطيع، فليرجع إلى الرقابة فهي مرجع الإنصاف ومقطع الخلاف، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الأرض وذخائر البحار، أو بدرهمٍ لا يندم عليه مُلقيه في التراب.